الدراسات الاستشراقية للقرآن الكريم في رؤية إسلامية

د. إدريس مقبول


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على محمد نبي المكرمات، وعلى آله وصحبه النجوم الهداة، وبعد:

الاستشراق وصورة الإسلام:

إن جزءاً من صورتنا وصورة إسلامنا الحنيف في الغرب اليوم يتحملها عنصران أساسان: الاستشراق من جهة، والإعلام الصهيوني من جهة ثانية[1]. من هنا توحدت هذه الرؤية إزاء الشرق، وإن اختلفت بالنسبة إلى أشياء أخرى، ولم يتمكن إنتاج المستشرقين أن يخترق جدار المرآة التي يرى الشرق بواسطتها، إلا استثناءً، ولذلك لم يطرأ أي تحول أساسي في منهج البحث لديهم بالرغم من تغاير الأزمان، واختلاف البلدان التي ينتسبون إليها.

في ضوء ذلك لا يصح أن نقر التقسيم الذي ذهب إليه بعض الدارسين، بتصنيف الاستشراق إلى مدارس، بحيث نسمي بعضه استشراقاً إنجليزياً، وبعضه الآخر فرنسياً، أو ألمانياً، أو هولندياً، صحيح أن الدارسين يسمون بأسماء البلدان التي ينتمون إليها، غير أن النتيجة الصحيحة . كما يشير إلى ذلك عمر لطفي العالم في كتابه «المستشرقون والقرآن» . المتأتية عن استعراض طرق البحث والتفكير والمحصلات، تنفي صحة هذا التقسيم،

(١) لا ينبغي أن نتجاهل في هذا المقام تأثير سوء فهم نفر من المسلمين لإسلامهم في أركان هذه الصورة، فالذين يستبيحون دماء أهل القبلة والآمنين والمسالمين من كل نحلة وملة بالإرهاب وبأعمال التفجير والترويع لا يفترقون في الإساءة إلى الإسلام عن أعدائه الصريحين.

وإذا كان لابد من وجود اختلاف، فليس مردُّه إلى الجغرافية، بل إلى التناوب في تسيير عجلة الاستشراق، وبعبارة أخرى فإنه ما إن وقفت مدرسة المستشرق دي ساسيه في باريس عن العطاء، حتى استأنفته مدرسة تيودور نولدكه في شتراسبورج، أو مدرسة هورجرونه في هولندا، أما الموضوعات فتوشك أن تكون متطابقة مكملة، فإذا عرفنا أن الاتصال عبر المؤتمرات السنوية والدوريات المنتظمة لم ينقطع أبداً، جاز لنا القول:

إن سحنة الاستشراق واحدة، ولا سيما في وسائلها وغاياتها المتجهة نحو القرآن الكريم[1].

من الجدير بالذكر أن القراءة الاستشراقية لأسس حضارتنا، ومنها القرآن الكريم كانت في الغالب قراءة مقطعة مجزأة، قراءة ضلالاتها ساحرة للعقول الضعيفة والقلوب المريضة و«الاستشراق، لسعيه إلى أمرين لا يمكن تلخيصهما، الإسلام والعرب، لم يصل إلى مستوى الأنتربولوجية الثقافية إلا بواسطة متغيرات: دراسة اللغة العربية كلغة ميتة، والعرب كشعب بائد، سلسلة من الشعوب والحضارات، كحشرات متحركة لعلم نبات قديم»[2].

ومن أعمال التخريب في قراءة الاستشراق ما نجده من التشكيك في الثوابت العقدية للدين الإسلامي، والتطاول على مقدساته بدعوى تحري النّزاهة والموضوعية، وكذا الطعن في الحقائق التاريخية التي تعلقت بالحضارة

(١) عمر لطفي العالم. المستشرقون والقرآن، ص ٢٦.

(٢) أحمد حسن عبد السلام: تاريخ الاستشراق الألماني، ضمن الفكر العربي، ع٣١، س٥، ١٩٨٣م، ص١٩٠.

الإسلامية بدعوى التزام مقتضيات النقد العلمي، ونذكر منها أيضا تشويه صورة المسلم في الكتب المدرسية والروايات الشعبية والأشرطة المصورة فضلا عن الافتراء على الشرع الإسلامي في أمور عدة، كزعمهم أنه ينكر حقوق المرأة، وأنه يقر استعباد الأفراد ونشر الدين بالقوة.

ولقد بات شطر كبير من هذه الدراسات الاستشراقية بوجهيها: التاريخي المكرور والديكارتي المتشكك النافي يعيش حالة من الإفلاس[١] بسبب النظرة العدائية السابقة التي لا تسمح للباحث أن يقف على الحقيقة الناصعة البيضاء لديننا وعقيدتنا السمحة.

لقد عمل المستشرقون على تشويه صورة الإسلام والمسلمين، والتشكيك في معتقداتهم وثقافتهم، وتصوير الإسلام باعتباره خطرا، يقول ماكسيم رودنسون في كتابه جاذبية الإسلام: ((لقد كان المسلمون خطرا على الغرب، قبل أن يصبحوا مشكلته))[٢].

خيال الاستشراق:

(١) يذهب المستشرق الألماني الدكتور ميكلوش موراني الأستاذ بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة بون بألمانيا إلى تقرير هذا بقوله في استجواب على موقع شبكة التفسير والدراسات القرآنية: ((في نظري وحسب تجاربي وما أرى حولي في السنوات الأخيرة، هُناك تراجعٌ مَلموسٌ وعام في جميع المجالات الاستشراقية القَديمة (الكلاسيكية). وذلك لأنَّ الاتجاهات الحديثة في الاستشراق نشأت على حساب الدراسات الأصيلة، فيكادُ المرءُ لا يَجِدُ معهداً يُرَكِّزُ على العلوم الإسلاميةِ، كما كان يُرَكِّزُ عليها الاستشراقُ في بداية القرنِ العشرين حتى السبعينات الميلادية، اللهمَّ إلاَّ القليل النّادرُ من المعاهد الاستشراقية. www.tafsir.net ٢٠٠٥/٢/٧.

(2) M.Rodinson: La Fascination de l islam, éd Maspero, Paris 1980. p19.

من هذه الزاوية بدأت الخيوط الأولى تنتسج لرسم لوحة عن الإسلام ونبيه وقرآنه، صورة سيئة ساخرة ناقصة ومشوهة. هذه الصورة نجدها تنطلق من الدراسات الأكاديمية التي تحاول أن تعطي لذاتها صفة العلمية وتسبغ على مفرداتها المنهجية العلمية وتنتهي بالأعمال التي تأخذ طابعا أدبيا و((فنيا)).وما أبعد ((الأدب)) و((الفن)) عنها!!!.

ففي الكوميديا الإلهية لدانتي الإيطالي الأصل والتي طبعت أكثر من (١٦) مرة في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الثالث عشر، (١٥) طبعة باللغة اللاتينية وطبعة بالعبرية، وأكثر من (٢٠) مرة في القرن السادس عشر، وما تزال طباعتها بالملايين إلى يومنا هذا، ترافقها آلاف التعليقات والشروح والدراسات التي تزينها في عقول الغربيين باعتبارها مثالا أعلى للإبداع، يصطدم القارئ المؤمن بمثال عن التعصب الغربي والعداء المستتر والظاهر ضد القرآن والإسلام والنبي محمد صلى الله عليه وسلم[1].

فترسخ في الخيال المعتل لكثير من الغربيين بفعل دراسات الاستشراق أن الإسلام هو العدو الأكبرThe Great Enemy وأن محمدا صلى الله عليه وسلم أمير الظلام The Prince of Darkness وأنه مخادع شهواني كاذب مختلق لكتاب خرافي هو القرآن[2]، إلى الدرجة التي يذهب فيها مونتغمري وات إلى اعتبار أن القرآن جاء نتيجة ما سماه بالتخيل الخلاق Creative

(1) Dante Alighier: La Comédie Divine,éd Librairies Garnier Frères, Paris 1930. P106-108.

(2) Watt, W.M. Muhammad at Medina, Oxford Press, London,1966,p324-325.

Imaginition واللاوعي الجماعيCollective unconscious[1] من خلال اتصال النبي بورقة بن نوفل الذي يدَّعون أنه أخذ عنه الرسالة الأصلية وطَوَّرها بقدرته التخيلية، وصدق الله العظيم إذ قال رادّاً على افتراءاتهم وأراجيفهم: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾[النحل: ١٠٣] وقوله أيضا: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ ﴾[الفرقان: ٤]، كما يرد على دعواهم بتعلمه ودراسته وتلقيه عمن زعموا بقوله جل في علاه: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وأكد أمية نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾[الجمعة: ٢] وقوله جل شأنه: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء: ١١٣].

الاستشراق والتركيز على القرآن:

ليس من قبيل المصادفة أن يحاول المستشرقون تركيز اهتمامهم في

---

(1) Watt,W.M. Muhammad Prophet and Statesman, Oxford University Press, 1964, p237-239.

فهمهم للحضارة العربية الإسلامية على القرآن الكريم، ((ولعل هذا هو ما كان حافزاً لإنشاء شعبة للدراسات الإسلامية وُضعت لخدمة الكنيسة، في احتراس تام من تقديم صور تخدم الإسلام، وهو مفهوم لم يكن جديداً، وتعود جذوره التاريخية إلى القرون الوسطى، التي ورثت عنها الفترات اللاحقة ((خرافة سوداوية الإسلام)).. وقد ذهب هذا الاحتراس بالكنيسة، إلى حدِّ أن الأب ماراشي Maracci أحد المترجمين الأوائل لمعاني القرآن الكريم، صنف الكالفينيين Les Calvinistes والساكرامنتريين Les Sacramentaires ضمن الجماعات المحمدية كأعداء لصورة القديسة))[1].

يرى الدكتور لطفي العالم أن ((القرآن كان أول كتاب في تاريخ النقد كله، وكان القرآن الكريم أول من كشف عورات العقائد، وكان المستشرقون أنفسهم أول من شهد له بذلك. يقول المستشرق باريت: (المسلمون هم الذين بدأوا بالهجوم فليتحملوا تبعة عملهم) نحن من عارض زيف النصارى...! نحن من فند كذب اليهود...! نحن من سفه عقيدة التثليث والصلب والقيامة وخلق المسيح، وموقفنا هذا هو الذي يمنحهم . كما يزعمون . نفس الحق في تشخيص حالتنا الدينية والنظر في أوضاعنا العقدية))[2]، وهي بدون شك مغالطة بقدر ما تستبطن من تحامل على الإسلام تبرر الهجوم الحاقد على القرآن وثقافته.

---

(١) سعيد علوش: مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، الشركة العالمية للكتاب دار الكتاب اللبناني- دار الكتاب العالمي، الطبعة١، ١٩٨٧م. ص٢٢١.

(٢) عمر لطفي العالم: نحن والاستشراق، ضمن رسالة الجهاد، ع٨٨، س١٩٩٠م، ص٨٦-٨٧.

هانكلمن قبل ماراشي في إيطاليا، نشر في هامبورغ دراسة مقارنة للإسلام والمسيحية، وإذا كنا نجد فيها القرآن بالعربية، فإنه ألحق به مجموعة طويلة من الملاحظات والمراجع من أجل الطعن فيه وتفنيده.

وجدير بالذكر أن اهتمامات العديد منهم كانت منذ البداية فيلولوجية[1] انصبَّتْ على تحقيق النصوص المتعلقة بعلوم القرآن فخدموا بذلك جانبا من ثقافتنا العربية والإسلامية إذ أخرجوها إلى النور من بطون المخطوطات التي استولوا على أكثرها في تاريخ من القرصنة مشهور وإن كنت أرجح أن هذه الخدمة لم تكن مقصودة لذاتها بل جاءت في سياق تفتيشهم وتنقيبهم عما به ينقضون صرح هذا الدين الحنيف. وهذا نموذج لبعضها ضمن الاستشراق الألماني[2].

قائمة بالدراسات الاستشراقية الألمانية حول القرآن الكريم:

- «أسرار التأويل وأنوار التنْزِيل»، للبيضاوي، تحقيق المستشرق الألماني فرايتاج (١٧٨٨-١٨٦١م)، ط.ليبزيج عام١٨٤٥م.

---

(١) يعني علم اللغة.

(٢) عن الدراسات الاستشراقية الألمانية يراجع: بارت، رودي: الدراسات العربية و الإسلامية في الجامعات الألمانية: المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه / تأليف رودي بارت؛ ترجمة مصطفى ماهر. القاهرة: دار الكاتب العربي، ١٩٦٧م. والمنجد، صلاح الدين: المستشرقون الألمان: تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية، بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٨م. الاستشراق الألماني: تاريخه وواقعه و توجهاته المستقبلية: دراسات مختارة جمعها و نقلها من الألمانية إلى العربية أحمد محمود هويدي. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ٢٠٠٠م. الطعمة، عدنان جواد: فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة الجمعية الاستشراقية الألمانية بمدينة هاله–ساله، جمهورية ألمانيا الديمقراطية، بغداد: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٧٧م.

- ((نجوم الفرقان في أطراف القرآن))، للمستشرق الألماني جوستاف فلوجل ١٨٠٢-١٨٧٠م، طبع لأول مرة في ليبزيج ١٨٤٢م.

- تحقيق كتاب ((المحتسب)) لابن جني، منشورات المجمع العلمي البافاري بميونخ ١٩٣٣م.

- ((المتشابه في القرآن)) للكسائي، بتحقيق المستشرق الألماني بريتزل ١٨٩٣-١٩٤١م.

- ((معاني القرآن)) لابن منظور، تحقيق المستشرق الألماني بريتزل، نشر بمجلة إسلاميكا.

- ((الأسماء والأعلام في القرآن))، للمستشرق الألماني يوزف هوروفيتش (١٨٧٤-١٩٣١م).

- ((اشتقاق لفظ القرآن))، للمستشرق الألماني يوزف هوروفيتش.

- ((تاريخ القرآن)) (أصل وتركيب سور القرآن) للمستشرق الألماني تيودور نولدكه (١٨٣٦ -١٩٣٠م)، جوتنجن ١٨٥٦ م.

- ((تاريخ القرآن))، للمستشرق الألماني برجشتراسر.

- ((تاريخ علم قراءة القرآن))، للمستشرق الألماني بريتزل.

- ((تاريخ النص القرآني))، للمستشرق الألماني تيودور نولدكه، جوتنجن ١٨٦٠م.

- ((ترجمة القرآن للعربية))، للمستشرق شنيجر النورمبرجي ١٦١٦م.

- ((ترجمة القرآن إلى الألمانية)) للمستشرق بويسن ١٧٧٣م وأعادها فاهل ١٨٢٨م.

- «ترجمة القرآن للألمانية»، للمستشرق أوهلمان ١٨٤٠م.

- «ترجمة القرآن للألمانية» لجوستاف فلوجل ١٨٤١م.

- «ترجمة القرآن للألمانية» لرودي بارت، ترجمها فيما بين ١٩٦٣ و١٩٦٦م.

- «دليل القرآنية»، للمستشرق الألماني مالير ١٨٥٧ — ١٩٤٥م، الطبعة الثانية، باريس ١٩٢٥م.

- «فهرست تفسير الطبري»، للمستشرق الألماني هوسلاتير، ستراسبورج ١٩١٢م.

- «القرآن»، للمستشرق الألماني كاله، بحث نشر بصحيفة دراسات الشرق الأدنى ١٩٤٩ م.

- «القرآن الرسمي بالنظر إلى قراءة أهل مصر». للمستشرق تيودور نولدكه، نشر بالمجلد العشرين من مجلة الإسلام.

- «القرآن والعربية»، للمستشرق الألماني كاله، نشر بمناسبة ذكرى جولد تسيهر ١٩٤٨م.

- «الكلمات الأجنبية في القرآن»، رسالة دكتوراه للمستشرق الألماني فرانكيل، ليدن ١٨٧٨م.

- «مدخل تاريخي نقدي إلى القرآن»، للمستشرق الألماني جوستاف فايل (١٨٠٨ — ١٨٨٩م).

- «مذهب الطبيعة الواحدة النصراني في القرآن»، للمستشرق الألماني بومشتارك، نشر بمجلة الشرق المسيحي ١٩٥٣م.

- «مراجع القرآن وعلومه»، للمستشرق الألماني بريتزل.

- «مشروع لاستعمال أسلوب النقد في نشر القرآن»، بقلم المستشرق الألماني براجشتراسر، عام ١٩٣٠م.

- «معجم قراء القرآن وتراجمهم»، للمستشرق الألماني براجشتراسر، نشر عام ١٩١٢م.

- «النبوة في القرآن»، للمستشرق الألماني هورفيتش ١٨٧٤ — ١٩٣١م.

- «النصرانية واليهودية في القرآن»، للمستشرق الألماني بومشتارك، نشر بمجلة الإسلام ١٩٢٧م.

آفات القراءات الاستشراقية:

يمكن أن نجمل آفات القراءات الاستشراقية على اختلافها فيما يلي:

١- معاملة القرآن بوصفه لا يختلف عن باقي الأعمال الإنسانية:

وهدف هذه الآفة إزالة ((عائق)) القدسية، وآليتها هي نقل الآيات القرآنية من وضعها الإلهي إلى الوضع البشري عبر إجراءات وعمليات منهجية مختلفة منها: حذف عبارات التعظيم التي درج جمهور المسلمين على استعمالها مثل ((القرآن الكريم)) و((القرآن العزيز))، و((قال الله تعالى))، و((صدق الله تعالى)) وما إليها مما يعكس قدر القرآن عند المؤمنين به[1]. كما يستعملون مصطلح الخطاب النبوي محل الخطاب الإلهي، ومصطلح الظاهرة القرآنية والواقعة القرآنية مكان مصطلح نزول القرآن. كما يعمد المستشرق إلى عملية التسوية في رتبة الاستشهاد بالقول فينزل الأقوال البشرية منزلة القول الإلهي في الاستشهاد وما إلى ذلك...بما ينتهي بالقرآن إلى اعتباره نصا لغويا لا يفترق عن باقي النصوص التي تحتمل ما لا حصر له من تأويلات.

إن المستشرق ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة، وكما ينظر إلى الفقه، وكما ينظر إلى اللباس، من حيث إن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة وتقع الجماعة في تطورها، وإذن فالدين في

---

(١) ويدخل في هذا التفاف واحتيال مونتغومري وات حين قال: ((لكي أتجنب الحكم على القرآن بأنه كلام الله أو ليس بكلامه فقد تجنبت حين الإشارة إلى القرآن استعمال عبارتي (قال الله) أو (قال محمد) فلم أقل إلا(قال القرآن)، وإنني لا أعتقد أن الإنصاف التاريخي ينطوي على نظرة مادية)).

Watt, M. Muhammad at Mecca, Fifth edition, Oxford,1972, p x

نظر «العلم الحديث» ظاهرة كغيره من الظواهر الاجتماعية، لم ينزل من السماء، ولم يهبط به الوحي، وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها.

٢- معاملة القرآن باعتباره واقعة تاريخية:

هدف هذه الآفة إزالة مطلقية أحكام القرآن، لأن اعتقاد المسلمين هو أزلية وثبوتية أحكام القرآن، وهذه القراءة تعمل على التعاطي مع القرآن باعتباره نصا تاريخيا محكوما بشروط تاريخية وظرفية يزول بزوالها. وانطلاقا من ربط القرآن بسياقات تنزله، يتم الالتفاف على حقيقة كونية القرآن ليتم تفسير معانيه تفسيرا تداوليا قاصرا من خلال الخوض في مسألة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمكي والمدني وغيرها من القضايا، ضاربين عرض الحائط ما أَصَّلَه علماء القرآن في هذا الشأن من قواعد وضوابط، ومستمسكين بالضعيف من الأقوال وبالشاذ من الآراء التي فرغ العلماء المحققون من ردِّها وبيان تهافتها. وفي كل ذلك يذهب المستشرقون إلى اعتماد منهج النسبية في التعاطي مع آيات القرآن وبخاصة آيات الأحكام التي يقللون من قيمتها؛ لأن الآيات «نزلت» مرتبطة بأشخاص ووقائع فهي خاصة بهم ولا تصلح أن تتعداهم إلى غيرهم. ومن وراء هذا تتوارى الدعوة لتجاوز القرآن و«تحديث الدين».

٣- معاملة القرآن باعتباره موضوعا للدراسات العقلية الوضعية:

اختصت هذه الآفة بالتعامل مع القرآن الكريم بكافة المنهجيات الحديثة التي تُسقط القرآن من مستوى كلام الله تعالى إلى عالم البشرية، وهدفها رفع عائق الغيبية، والقرآن عند أغلب المستشرقين ومن نحل نحلتهم من المتغربين من بني جلدتنا مادة موضوعها ينبغي أن ينظر إليه بما تتيحه «الوسائل العلمية» و «المناهج الدراسية المقارنة في علم الأديان

والتيولوجيا)). كما أنَّ أصلحَ المناهجِ عندهم تلك التي تروم تفكيكه وتفتيته، والانطلاق من الفرضيات الشكية والعنادية، وتلك التي تستند إلى أخف الحجج وأبعدها وأكثرها شذوذاً وبُعداً عن روح العلم والتاريخ.

وما عَلِم القوم أن هذه العقلانية التي تغطوا بأسمالها وتعلقوا بأهدابها ليست من العلم الحقيقي في شيء، وأن العقل الذي توهموه واحدا ليس إلا ضربا من التحكم، والواقع كما يقول الدكتور طه عبد الرحمن ((إن من يتلقى لفظ (العقل) محمولا على معنى يخالف المعنى الذي صح عنده استعماله به، لا يستغلق عليه الفهم فقط، بل تضطرب عنده أصول التداول الخاصة بلغته))[1].

وقد أجمع أكثر الدارسين والباحثين[2] ممن تصدوا لقضية الاستشراق على أن أبرز سمات هذا المنهج الذي درسوا الإسلام والقرآن على أساسه هي:

أ- تحليل الإسلام ودراسته بعقلية أوربية، فهم حكموا على الإسلام معتمدين على القيم والمقاييس الغربية المستمدة من الفهم القاصر والمغلوط

---

(١) طه عبد الرحمن: فقه الفلسفة، الجزء١: الفلسفة والترجمة، المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٠م، ١٧٤.

(٢) يراجع: عبد العظيم الديب: المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي،سلسلة كتاب الأمة ط١، قطر مطابع مؤسسة الخليج، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ربيع الثاني١٤١١هـ،ص٩٩-١٠٠، والتهامي النقرة: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية،٣٣/١، ونجيب العقيقي: المستشرقون،ط٣،دار المعارف، ١٩٦٥،٣م/١٠١٩-١٠٢١، وبحث عماد الدين خليل ضمن كتاب: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، الرياض، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨٥،١م/١١٨.

الذي يجهل حقيقة الإسلام.

ب- تبييت فكرة مُقَدَّماً ثم اللجوء إلى النصوص واصطيادها؛ لإثبات تلك الفكرة واستبعاد ما يخالفها.

ج- اعتمادهم على الضعيف والشاذ من الأخبار وغض الطرف عما هو صحيح وثابت.

د-تحريف النصوص ونقلها نقلاً مشوهاً وعرضها عرضاً مبتوراً وإساءة فهم ما لا يجدون سبيلاً لتحريفه.

هـ-غربتهم عن العربية والإسلام منحتهم عدم الدقة والفكر المستوعب في البحث الموضوعي.

و- تحكمهم في المصادر التي ينقلون منها، فهم ينقلون مثلاً من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه، ويصححون ما ينقله الدميري في كتاب الحيوان ويكذبون ما يرويه مالك في الموطأ، كل ذلك انسياقاً مع الهوى وانحرافاً عن الحق.

ز- إبراز الجوانب الضعيفة والمعقدة والمتضاربة، كالخلاف بين الفرق، وإحياء الشبه وكل ما يثير الفرقة، وإخفاء الجوانب المشرقة والإيجابية وتجاهلها.

ح- الاستنتاجات الخاطئة والوهمية وجعلها أحكاماً ثابتة يؤكدها أحدهم المرة تلو الأخرى، ويجتمعون عليها حتى تكاد تكون يقيناً عندهم.

ط- النظرة العقلية المادية البحتة التي تعجز عن التعامل مع الحقائق الروحية.

ومحصول الكلام في هذا الموضع أن معالجة القضايا المتعلقة بعلوم القرآن التي تمتد جذورها إلى عالم الغيب، وترتبط أسبابها بالسماء ويكون الوحي همزة وصل مباشرة بين الله سبحانه تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن تعامل كما تعامل الجزئيات والذرات والعناصر في مختبر الكيمياء، ثم إن كثيرا مما يتصل بالقرآن يندُّ عن مملكة العقل المجرد[١]، ويستعصي على التحليل المنطقي الاعتيادي المألوف، وعليه تبقى كل محاولة لقسر حقائق القرآن لإخضاعها لمقولات العقل الصرف ومعطيات المنطق المتوارثة لا يمكن أن تقود إلا لنتائج خاطئة.

وفيما يلي بعض ادعاءاتهم وافتراءاتهم التي قادت إليها مناهجهم:

– الادعاء بأن القرآن الكريم من إنشاء محمد صلى الله عليه وسلم:

((إنَّ المستشرقَ الذي يدرسُ نصَّ القرآنِ وعُلومَه لا ينطلقُ من الحَقيقةِ المطلقةِ لدى المسلمين أَنَّ هذا النصَّ وحيٌ مُنَزَّلٌ، أَي لا يدرسهُ مِن زاويةِ الإيمانِ، بل مِنْ زاوية العلمِ المنفصلِ مِن جَميع ما يدخلُ في باب الإيمان والعقيدةِ. الاستشراقُ يُعالج النصَّ القرآنيَّ وِفقاً لِمَعاييرِ علومِ الدياناتِ العامةِ، وَوفقاً لعلوم التأريخ))[٢].

---

(١) العقل المجرد يقع في أدنى المراتب من الفعالية العقلية لوقوفه عند حد التحليل الملموس للواقع الملموس، ويأتي فوقه العقل المُسدَّد بالإيمان والمُؤَيَّد بالتوفيق والعمل الذي يبحث بمقتضاه في قضايا الشرع من منطلق اليقين ومن مبدأ تعميق العلم المنتج للعمل لا المنتج للجدل.

(2) www.tafsir.net 7/2/2005 من حوار مع ميكلوش موراني

يذهب جيب إلى أن القرآن تعبير عن محمد صادر منه Mohammad ‘s Utterances[1]، وهو نفسه رأي روزنتال، إذ يعتبر القرآن من إنشاء محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه استمد الأجزاء التاريخية على الأقل من مصدر يهودي مسيحي متأخرUltimate[2]. ولهذا نسبوا كل ما له تعلق بالدين لمحمد صلى الله عليه وسلم قاطعين إياه عن مصدره الحقيقي الذي هو الوحي من رب العزة جل في علاه. وحتى المستشرقون الذين توصلوا مع أنفسهم إلى الاتفاق على قبول صدق محمد والاعتراف بأنه دعا إلى دين جديد متميز تميزا أساسيا يعودون ليؤكدوا في الوقت نفسه أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن كلها من مصدر إلهي! وهذا نص لباحث آخر له دراسات وأبحاث متنوعة يقول: «إن على الإسلام أن يقر بحقيقة أصله- ذلك التأثير التاريخي للتراث الديني اليهودي المسيحي»[3].

وليس يُدرَى كيف يعتبر هؤلاء محمدا نبياً صادقاً، ثم ما يلبثون أن ينسبوا إليه التلاعب...إنه تناقض صريح مع النفس لا يعبر إلا عما ذكرناه من عداء مشوب بجهل.

و هذا مونتغمري وات . أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة لندن . عندما يأتي إلى قضية الاختلاف بين أسلوب الرسول صلى الله عليه

---

(1) Gib: .Mohammedanism, Oxford, 1950. 35-37.

(2) Rosenthal: The Influence of Biblical Tradition on Muslim Historiography. In B. Lewis P.M. Holt éd Historians of the Middle East, Oxford 1962.

(3) Matt.W: Islam and Integration of Society, London. 1961, p 293.

وسلم في أحاديثه وبين أسلوب القرآن المتميز هنا يلجأ إلى علم النفس التحليلي، فيقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم عندما يقرأ القرآن على الناس يكون في حال يضعف فيها الوعي الخارجي ويعمل وينشط اللاشعور أو العقل الباطن، فعندئذ يكون الأسلوب مغايراً لأسلوبه عندما يكون في يقظته العقلية الكاملة أو وعيه الظاهر الكامل، ومن هنا يأتي أسلوب الحديث مغايراً لأسلوب القرآن. نحن نعلم أن مغايرة أسلوب القرآن لأسلوب الحديث النبوي هو أحد الوسائل التي بنيت عليها موضوعات الإعجاز القرآني، باعتبار أن أسلوب القرآن أسلوب فريد متميز عن الأساليب البشرية، وأن الإسلام تحدى العرب – وهم أساطين البلاغة – بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، وأن عدم استجابتهم للتحدي مع رغبتهم في ذلك يدل على أن الأمر كان عندهم ظاهراً بحيث تميزت أمامهم الحقيقة وهي أن هذا أسلوب مغاير لأساليب البشر.

ويدخل تحت هذه الشبهة شبهة أخرى إذ حرص المستشرقون على تصيُّد النظائر والمتشابهات بين القرآن والكتب الأخرى، واتخاذها ذريعة للقول بتلقي الرسول الأمين (صلى الله عليه وسلم) مادة القرآن الكريم من تلك الكتب، كما نلاحظ ذلك في الكثير من مؤلفات المستشرقين حول القصص القرآني، فقد أشار المستشرق الألماني ((هاينز شبييار)) في كتابه الصادر عام ١٩٣١م تحت عنوان ((القصص التوراتي في القرآن))، أشار في مقدمة هذا الكتاب إلى ما سمّاه أعمالاً أصولية ومرتكزات علمية على مدار السنوات المائة الأخيرة ــ وهي مؤلفات المستشرقين: شبرنجر، موير، جريم،

نولدكه، بوهل، شفاللي ــ، وعلل شبييار حكمه هذا بأن أصحاب هذه الأعمال خصصوا النصيب الأوفر من تلك الدراسات للحديث عن شخصية الرسول، كما قال: ((إن هذه الدراسات دلت صراحة على التصورات غير العربية التي ((اقتبسها)) الرسول من غيره، سواء في مواجهاته التشريعية أو السياسية، وذلك في ضوء الدراسات النقدية التي وضع أسسها المستشرق المعروف أجناس جولدتسيهر من خلال دراسته للسيرة))[1].

يذكر الأستاذ إدوارد سعيد أنه تحت المدخل المتعلق باسم محمد (صلى الله عليه وسلم) سرد دير بيلو أولا جميع أسماء الأنبياء، ثم انتقل إلى تأكيد قيمة محمد صلى الله عليه وسلم العقدية والمذهبية كما يلي: ((هذا هو المنتحل المشهور ماهوميت، المؤلف والمؤسس لهرطقة اتخذت لها اسم الدين، نسميها نحن الماهومتية. راجع المدخل (إسلام) وقد نسب مفسرو القرآن وفقهاء الشريعة الإسلامية أو الماهومتية، إلى هذا النبي كل المدائح التي نسبها الآريون والبولسيون أو البوالسة والهراطقة الآخرون إلى يسوع المسيح، مجردين إياه في الوقت نفسه من ألوهيته..))[2].

والمحمدية والمحمديون هي التسمية الأوربية للإسلام وللمسلمين وهي تسمية تحمل عند ذكرها صورة مهينة وناقصة ومشوهة عن نبي الإسلام الذي وضع القرآن من عنديته، وشوَّش على العالم المتحضر بدعوته الهمجية

---

(١) يراجع ما قاله: عمر لطفي العالم. المستشرقون والقرآن، مرجع سابق، ١١٨.

(٢) نقلا عن إدوارد سعيد: الاستشراق، مرجع سابق، ٩٤.

بزعمهم.

وهكذا كان الإسلام بالنسبة لكثير من المستشرقين ((عملا شيطانيا)) وكان القرآن نسيجا من السخافات، وكان محمد ((دعيا)) ((كذابا)) فيما جاء به من القرآن الكريم.

ورحم الله الدكتور محمد عبد الله دراز الذي كتب يقول رادا هذا الزعم: ((إن في القرآن جانبا كبيرا من المعاني النقلية البحتة، التي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط، ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة والتلقي والتعليم. ماذا يقولون فيما قصه علينا القرآن من أنباء ما قد سبق وما فصله من تلك الأنباء على وجهه الصحيح كما وقع؟ أيقولون إن التاريخ يمكن وضعه بإعمال فكر ودقة فراسة؟ أم يخرجون إلى المكابرة العظمى، فيقولون إن محمدا قد عاصر تلك الأمم الخالية — لا نقول إن العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية وبمجمل ما جرى من حوادث التدمير في ديار عاد وثمود وطوفان نوح وأشباه ذلك لم يصل قط إلى الأميين. لأنها مما توارثته الأجيال وسارت به الأمثال، وإنما الشأن في تلك التفاصيل الدقيقة والكنوز المدفونة في بطون الكتب، فذلك هو العلم النفيس الذي لم تنله يد الأميين، وإنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محررا في القرآن))[1].

إن القراءة الإرجاعية الأصولية الاستشراقية لما تضمنه القرآن الكريم،

(١) محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، دار القلم، ١٩٧٤م، ٣٦-٣٧.

ومحاولة اكتشاف الأصول في موروث كتابي آخر، هي أحد أبرز ملامح الرؤية التقليدية للاستشراق في تعامله مع التراث الإسلامي، بل التراث الشرقي عامة، فمثلاً التشريع الإسلامي عندهم هو القانون الروماني، و... الخ. وليست بعيدة عنا دعوة رينان نفسه إلى المقارنة بين العقل الآري المتفوق والعقل السامي المتخلف...!!!

لقد كانت هذه القراءة مظهراً واضحاً لتجلي الوعي الاستشراقي، الذي ولد في أحضان اللاهوت الكنسي، والذي عمد إلى تبني خطاب تضليلي في الحديث عن القرآن الكريم والتراث الإسلامي، لأنه مما لاشك فيه أن تاريخ الإنسانية تاريخ مشترك، والمنعطفات الكبرى في هذا التاريخ شملت كل أفراد النوع الإنساني آنذاك، فقد كانت الأرض هي المسرح الطبيعي لتلك الحوادث، كحادث الطوفان الذي عمَّ الأرض في عصر النبي نوح عليه الصلاة والسلام.

ومن هنا تكرر ذكر الطوفان مثلاً، في الكتب القديمة، بل في الألواح الطينية التي عُثر عليها في آثار الأمم القديمة كالسومريين وغيرهم، فلماذا يصبح ذكر هذا الحادث في القرآن اقتباساً من التوراة؟! وقريب من هذه الدعوى ما ذهب إليه((لوت)) من أن النبي صلى الله عليه وسلم مدين بفكرة فواتح السور من قبيل: حم، وطسم، والم...إلخ لتأثير أجنبي، ويرجح أنه تأثير يهودي، ظنا منه أن السور التي بدئت بهذه الفواتح مدنية خضع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم لتأثير اليهود، ولو دقق في الأمر لعلم أن سبعا وعشرين سورة من تلك السور التسع والعشرين مكية، وأن اثنتين

فقط من هذه السور مدنيتان وهما سورة البقرة وآل عمران[1].

الادعاء بأن القرآن الكريم عمل أدبي:

مما يتصل بالشبهة السابقة شبهة أخرى هي اعتبار القرآن الكريم أدبا يخضع لخصائص وطبائع الأدب الأرضي البشري، وهكذا تعاملت الدراسات الاستشراقية معه بعيدا عن القدسية الدينية التي يعامل بها المسلمون المؤمنون كلام الله-القرآن الكريم-، وهذا في الواقع انعكاس لطبيعة تعامل المستشرقين مع كتبهم الدينية حيث يدرسونها كما يدرسون الآثار الأدبية القديمة والأساطير والملاحم الخرافية[2]. وهذه الظاهرة تكاد تكون عامة في كتب ((تاريخ الأدب)) حيث تعرضوا للقرآن باعتباره يمثل مرحلة من مراحل الأدب العربي، وقوموه بالمقاييس الأدبية الأوربية تارة وبالعربية تارة أخرى، وفي هذا الصدد نشير إلى مثال واحد من أمثلة لا تكاد تحصى كثرة، نشير إلى مقارنة المستشرق الألماني كارل بروكلمان بين القرآن وسجع الكهان حيث يقول: ((..ولكن محمدا التاجر المكي هو الذي ساقته ضرورة دينية أعز وأقوى إلى أن يعلن صلته بالله...واستخدم محمد في دعوته أساليب الكاهن...كان محمد في أقدم مراحل دعوته الدينية يطلق ما يدور بخلده، وهو صادق الاستغراق والغيبوبة، في جمل مؤثرة يغلب عليها التقطع والإيجاز وتأخذ طابع سجع الكهان))[3]. والحق أنها تكرار لدعوة الوثنيين في

(١) محمد غلاب: نظرات استشراقية في الإسلام، ٤١-٤٢.

(٢) يراجع: شلتاغ عبود شراد: الاستشراق الأدبي، ضمن رسالة الجهاد، ع٨٩، س ١٩٩٠م، ص٨١.

(٣) بروكلمان كارل: تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار =

مقاومة فكرة أن القرآن وحي من عند الله، فزعموا –كما حكى القرآن نفسه عنهم– أنه ﴿ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾[الفرقان: ٤] وأنه ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ ﴾[الفرقان: ٥] وأن محمدا ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾[النحل: ١٠٣].

ومن توابع هذا حديثهم عن ((النص المقدس)) والإسلام كما هو معروف لا يستعمل هذا الوصف لا على صعيد التصور العقلي ولا على صعيد الممارسة العملية، ولكن ثمة بدائل لهذا المصطلح مثل ((القرآن الكريم)). غير أن هذه البدائل لا تعني في المجال التداولي الإسلامي ما تعنيه في فضائه الغربي. وإن استعماله عربيا ليعد استعارة مسيحية تسللت كأمور كثيرة إلى الفضاء الدلالي في الإسلام المعاصر. وإن معناه ليتحدد بإطلاقه على العهد القديم والعهد الجديد. كما يطلق على الناتج الثقافي المسيحي في الفن والرسم وبعض الآداب والتفاسير التي أضفيت إليها هالة القداسة عندهم. وهذا الالتباس للأسف الشديد جعل أمثال محمد أركون وجلال العظم ونصر حامد أبو زيد وغيرهم...يستعملونه اقتباسا من أساتذتهم المستشرقين ويوظفونه لإسقاط أي قداسة من على القرآن الكريم، وليبيحوا لأنفسهم أن يقولوا ما يشاءون من جهالات وتخليط؛ لأن الأمر لا يعدو أن يتعلق بنص شأنه كشأن باقي النصوص التي يخضعونها للتشريح والنقد

= المعارف القاهرة، ط٣، ١/١٣٤-١٣٧.

الخالي من الإيمان... ويسمون قصصه ((أساطير)) myths، مما يذكِّرنا بالقرشيين، الذين كانوا كلما حَزَبَهم أمر هذا الكتاب، ولم يستطيعوا أن يقفوا في طريقه، أو يردّوا على حُجَجه، أو يأتوا بمثله حسبما تحداهم أكثر من مرة صاحوا قائلين ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾(الأنعام: ٢٥، الأنفال: ٣١، والنحل: ٢٤، والمؤمنون: ٨٣، والفرقان: ٥، والنمل: ٦٨، والأحقاف: ١٧، والقلم:١٥، والمطففين: ١٣). يقصدون بذلك أن القرآن الذي نزّله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ليس إلا قصصا نقلها النبي عما خلَّفه السابقون وراءهم من قَصَص مسطور. يريدون أن يقولوا إن القرآن ليس وحيا إلهيا بل إنتاج بشري شأنه شأن قصص العنقاء وأساطير اليونان الخرافية التي تحكى عن زيوس وبرومثيوس و...، معاذ الله!!!.

القرآن لم يدون إلا في العهد المدني:

من المفيد الإشارة في هذا المقام إلى حقيقة تاريخية، وهي: أن كثيراً من المؤرخين تغلب عليهم صفة إطلاق الأحكام العامة والشاملة وعدم الدقة في بعض الأحيان في إصدار الأحكام، أو في نقل الروايات المتناقضة في الحادثة الواحدة من غير تمييز الصحيح منها من السقيم، فربما يأخذ بواقعة معينة ويبني عليها حكماً عاماً تخالفه وقائع أخرى، وقد مهّد هذا التوجه لأن يبني المستشرقون على ما صدر من المؤرخين المسلمين من هذا القبيل شبهات خطيرة وافتراءات تمس صلب الإسلام والقرآن الكريم وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، فنجد أن جل الشبهات والافتراءات التي تمسك بها المستشرقون قد كان لها أصل في بعض كتب المسلمين. ومن الأخطاء التي صدرت عن بعض المستشرقين من أمثال بلاشير Blachere ادعاء أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعط أهمية لكتابة النص القرآني في حياته، ولاسيما في العهد المكي الذي امتد حوالي ثلاثة عشر عاماً، وبقي مفهوم القرآن المكي النازل بمكة محفوظاً في ذاكرة المسلمين المكيين. وإنما بدأ بكتابة المقاطع الهامة من القرآن المنزل عليه في السنوات الأولى من العهد المدني[1].

ويرد هذه الدعوى الباطلة ما ذكره الباقلاني من أسماء كُتابه القرشيين أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزيد بن أرقم وخالد بن سعيد والزبير

(١) بلاشير، ريجيس: القرآن نزوله وتدوينه وترجمته وتأثيره، ترجمة: رضا سعادة، (بيروت: دار الكتاب، ط١، ١٩٧٤م) ص ٢٩-٢٧.

وحنظلة وجهيم بن الصلت وغيرهم كثير[1].

وقد قامت منظمة الإيسيسكو مشكورة بنشر دراسة وافية شافية تحت عنوان «القرآن الكريم دراسة لتصحيح ما ينشر عن الإسلام والمسلمين من معلومات خاطئة رقم ٢»[2]، محاولة إثبات كتابة القرآن الكريم في العهد المكي، من خلال سرد بعض الآيات القرآنية المكية، وقصة عبد اللّٰه بن أبي سرح، ومحاولة الرد على دائرة المعارف الإسلامية الصادرة في ليدن التي رددت كلمات وآراء بلاشير من غير تمحيص.وقد تتبع فضيلة الأستاذ الفرماوي أسماء كُتَّابه صلى الله عليه وسلم في مكة والمدينة بل ومن كان منهم متخصصا في بعض شؤون الحياة الإسلامية دون غيرها، فليرجع إليه[3].

وفي هذا الصدد يقول جاك بيرك المستشرق الفرنسي: «ومع ذلك فقد وُجِد بعض النقاد الشكاكين الذين استلبتهم نماذج ثقافية أخرى، فأرادوا أن يجعلوا تاريخ جمع النص متأخرا قرنا أو قرنين عن اليوم الذي وقع فيه. ولقد ذهبوا مذهبا جعلهم لا يرون في هذا الأمر سوى علم لأسباب الارتداد إلى الماضي. وإننا لنرى في هذا تحويلا لأطروحة كان **Schacht** قد بالغ فيها

---

(١) الباقلاني أبو بكر بن الطيب: الانتصار للقرآن، تحقيق محمد عصام القضاة، دار ابن حزم،ط١، ٢٠٠١م، ص ٤١٣- ٤١٤.

(٢) القرآن الكريم دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار ليدن، رقم ٢، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٧م، ص٦٣.

(٣) الفرماوي عبد الحي حسين: رسم المصحف ونقطه، مؤسسة الريان دار نور المكتبات، ط١، ٢٠٠٤م، ص٥٠-٥٥.

سابقا إذ تكلم عن مادة الحديث. كما نرى أن هؤلاء دفعوا بهذه الأطروحة إلى حد لا سند لها))[1].

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن دائرة المعارف الإسلامية هي ثمرة تعاون بين عدد من المستشرقين، وقد تم إصدارها في طبعتها الأولى بالإنجليزية والفرنسية والألمانية في الفترة من عام ١٩١٣م إلى عام ١٩٣٨م. وقد تولت نقلها إلى العربية لجنة دائرة المعارف الإسلامية من خريجي الجامعة المصرية منذ عام ١٩٣٣م ولكنها لم تصل في الترجمة إلا إلى حرف العين... وقد تمكن المترجمون من التعليق على ما ورد فيها من أخطاء بمعونة مجموعة من العلماء، وقد تجاوز المستشرقون فيما بعد هذه الدائرة وقاموا بنشر دائرة معارف جديدة اعتبروها منقحة بناء على التصويبات والمخطوطات التي استجد ظهورها، وقد ظهرت طبعتها الجديدة باللغتين الإنجليزية والفرنسية من عام ١٩٥٤م حتى عام ١٩٧٧م.

القرآن وشبهة التحريف والنقص:

قام المستشرق الألماني الدكتور تيودور نولدكه (١٨٣٦م - ١٩٣٠م) في كتابه عن تأريخ القرآن بتأسيس موقف يبدو أحيانا غريبا ومتناقضا، ففي الوقت الذي يعقد فيه فصلا بعنوان: (الوحي الذي نزل على محمد ولم يحفظ في القرآن) والذي يبدو فيه قائلا بالتحريف تلميحا، نجده يصرح بذلك في

---

(١) جاك بيرك: القرآن وعلم القراءة، ترجمة منذر عياشي، دار التنوير بيروت، مركز الإنماء الحضاري، ط١، ١٩٩٦م. ص١٣١.

مادة ((قرآن)) بدائرة المعارف الإسلامية فيقول: ((إنه مما لا شك فيه أن هناك فقرات من القرآن ضاعت)) ويثني على هذا الموضوع الخطير في دائرة المعارف البريطانية، مادة قرآن فيقول: ((إن القرآن غير كامل الأجزاء))(١).

وهي لعمري شبهة قديمة مما تعلق به الروافض، وقد أجاد الباقلاني في ردها وفضحها، يقول ناقلا أكاذيبهم التي ركبها المستشرقون: ((وزعم قوم من الرافضة أن القرآن قد بُدِّلَ وغُيِّر وخولف بين نظمه وترتيبه، وأحيل عما أنزل إليه، وقرئ على وجه غير ثابت عن الرسول، وأنه قد زيد فيه ونقص منه، وقال بعضهم: قد نقص منه ولم يزد فيه...وأننا لا ندري لعل الذي بين أيدينا من القرآن أقل من عشر ما أنزله الله تبارك وتعالى..))(٢)، ثم جعل يرد بعدد من الأدلة نقتصر منها على أنه نقل إلينا بطريق التواتر الذي يفيد اليقين والقطع في التلقي، ((وقد عُلِم أن التشاجر والتراسل واتفاق الكذب متعذر ممتنع على مثلهم، فوجب لذلك العلم بصحة ما نقلوه، وسقوط كل رواية جاءت من جهة الآحاد بخلاف ذلك عن بعض الصحابة والتابعين، وما يجوز أن يروى من ذلك ويفتعل ويُتَكَذَّب في المستقبل، لأن نقل ما ذكرناه أوجب لنا علم الضرورة بصحة ما نقلوه، وانتفاء السهو والإغفال والكذب والافتعال عنهم لما هم عليه من كثرة العدد واختلاف الطبائع والأسباب والهمم))(٣).

---

(١) يراجع: الصغير محمد حسين علي: المستشرقون والدراسات القرآنية، ص٣٠.

(٢) الباقلاني: الانتصار للقرآن، ٦٧/١.

(٣) الباقلاني: الانتصار للقرآن، ٩٤/١-٩٥.

وجملة ما أثاره نولدكه لا يعدو الادعاء الذي لا يقوم على دليل، ويبدو أنه قد تراجع عن آرائه شيئا ما، خاصة حينما ظهر كتاب المستشرق الألماني «فوللرز» عن لغة الكتابة واللغة الشعبية عند العرب القدماء، والذي أثار نقاشات حادة، فقد زعم «فوللرز» في كتابه أن القرآن الكريم قد أُلِّف بلهجة قريش، وأنه قد عُدِّل وهُذِّب حسب أصول اللغة الفصحى في عصر ازدهار الحضارة العربية، وقد انبرى نولدكه نفسه للرد عليه موضحاً أن كلامه عار من الصحة والتحقيق العلميين[1].

لقد فتح (نولدكه) الطريق أمام القول بتحريف القرآن، ثم بدا مدافعا عنه، مما بدا فيه متناقضا بين السلب والإيجاب في الموضوع.

وإذا كان ما قدمه المستشرق نولدكه قد تضاءل قيمةً؛ نظرا لتردده في الأمر، وعدم وضوح الرؤية له فيه، فإن ما كتبه المستشرق بول بكثير من عدم التورع، لا يمكن أن يتهاون فيه.

لقد ألقت مسألة التحريف التي أثارها بعض المستشرقين، عند المستشرق بول بثقلها، فكتب عنها بحثا في دائرة المعارف الإسلامية الألمانية[2].

اعتبر بول التحريف تغييرا مباشرا لصيغة مكتوبة، وأن الأمر الذي حدا بالمسلمين إلى الاشتغال بهذه الفكرة هو ما جاء بالقرآن من آيات اتهم فيها

---

(١) آلبرت ديتريش، الدراسات العربية في ألمانيا، تطورها التاريخي ووضعها الحالي، جوتنجن، ١٩٦٢م: ص١٣.

(٢) بول (Fr. Bull)، دائرة المعارف الإسلامية الألمانية، تعريب: د. عبد الحميد يونس وجماعته، القاهرة، ١٩٣٣م: ج٤ /٦٠٤-٦٠٨.

محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم اليهود بتغيير ما أنزل إليهم من كتب وبخاصة التوراة. ولكن عرضه للوقائع والشرائع التي جاءت في التوراة انطوى على إدراك خاطئ أثار عليه النقد والسخرية من جانب اليهود، فكان في نظرهم مبطلا.

يقول ((بول)) مفتريا، وهو يضرب على وتر حساس محاولا الاصطياد في الماء العكر: ((وقد أثيرت تهمة التحريف فيما وقع من جدل بين الفرق الإسلامية المختلفة. فالشيعة يصرون عادة على أن أهل السنة قد حذفوا وأثبتوا آيات في القرآن بغية محو أو تفنيد ما جاء فيه من الشواهد معززاً لمذهبهم، وقد كال أهل السنة بطبيعة الحال نفس التهمة للشيعة))(1).

وقد ثبت أن الوحي أمر يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم من خارجه وهو مؤتمن على الرسالة، وقد أداها متكاملة غير منقوصة بنص القرآن الكريم: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾[المائدة: ٣].

إن الدلائل العلمية تؤكد حقيقة صيانة القرآن كيانا متماسكا مستقلا لم تصل إليه يد التحريف، ولم تستهدفه نبال العوادي، وليس هذا أمراً اعتباطياً تحكَّمت فيه الظروف أو الصدف، بل هو أمر حيوي قصدت إليه إرادة الله تعالى، وتأسيسا على ذلك فلا يغير القرآن غرض طارئ، ولا

(١) بول، دائرة المعارف الإسلامية الألمانية: ٤ /٦٠٨.

عدوان مباغت. ورحم الله شيخنا الطاهر بن عاشور الذي أجاد حين ذهب إلى أن العربية إنما شرفت بالقرآن وارتفعت ببيانه وفصاحته، يقول: «فجاء القرآن على أسلوب أبدع مما كانوا يعهدون وأعجب، فأعجز بلغاء المعاندين عن معارضته ولم يسعهم إلا الإذعان، سواء في ذلك من آمن منهم مثل لبيد بن ربيعة وكعب بن زهير والنابغة الجعدي، ومن استمر على كفره عناداً مثل الوليد بن المغيرة»[1].

القرآن الكريم وشبهة الافتقار إلى الدقة الدلالية:

يسوق المستشرق «كارادي فو B. Carrade Vaux شبهة تناقض القرآن بادعاء وجود تردد فيه كما في المقطع التالي تحت مادة «جهنم» في دائرة المعارف الإسلامية: «الظاهر أن القرآن قد تردد بعض التردد في مسألة خلود العذاب في جهنم، فالآيات التي تشير إلى ذلك لا تتفق تمام الاتفاق، ولعل هذا التردد إنما يرجع إلى أن النبي محمداً لم يكن من الفلاسفة المتفكرين، فلم يستطع أن يعرض بوضوح المشكلة كمشكلةِ الخلود يدخل فيها مثل هذا التصوّر المجرّد»[2].

وهو فهم أعوج مبناه على ما سبق أن ذكرناه من تصورهم أن القرآن إبداع محمد صلى الله عليه وسلم واختلاقه، ولهذا جاز عليه الاضطراب كما يجوز على سائر كلام البشر، تعالى كتاب الله عما يقولون علوا كبيرا. إنما

---

(١) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير: الدار التونسية للنشر، ج١/٩٣.

(٢) يراجع: دائرة المعارف الإسلامية، ٧/١٩٨.

هو تنزيل من حكيم عليم.

كما تأتي دعوى التردد على سبيل الملازمة بين القرآن والتغييرات التي تحصل في توجّهات النبي محمد صلى الله عليه وسلم، إذ يقول ((فنسنك)) تحت مادة ((الخمر)): ((ولم يكن تحريم الخمر في برنامج النبي منذ البداية، بل نحن نجد في الآية (٦٧) من سورة النحل مدحاً للخمر بوصفها آية من آيات الله للناس، وهذا نصها:﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ بيد أنه قيل إن عواقب السكر قد ظهرت على الصورة التي بيّنا، فدفع ذلك النبي إلى أن يغيّر من اتجاهه. وأول ما نزل من الوحي مبيّناً هذا الاتجاه هو الآية (٢١٩) من سورة البقرة ونصها: ﴿ ۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ [البقرة: ٢١٩-٢١٩]على أن هذه الآية لم تعد تحريماً. ولم يغيّر الناس من عاداتهم وحدث أن اضطرب نظام الصلاة فنزلت آية أُخرى هي الآية (٤٣) من سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا ﴾ [النساء: ٤٣-٤٣] ومع ذلك فإن هذه الآية أيضاً لم تعد تحريماً مطلقاً للخمر حتى نزلت الآية ٩٠ من سورة المائدة فوضعت حدّاً للخمر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ

﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة: ٩٠-٩٠]))[1].

فإذا تأملت في هذا الكلام وجدته لا يقوم على أصل علمي ولا فقه لغوي، بل قُصاراه الرجم بالغيب والتلاعب بالمعطيات التي يجدها المستشرق في القرآن منثورة هنا وهناك، فلا يستسيغها ولا يملك عقله الذري[2] أن يؤلف بينها ويجد النسق الجامع الذي من خلاله يقرأ مناسبة الآية وسبب نزولها وحكمة التدرج في التشريع ونزول كلام الله منجما على مراحل ليعالج النفوس[3] ويصلح الأحوال ويشحذ الهمم للبناء خطوة خطوة. وما أدرى هذا القائل؟ بأن قوما تعلَّقت قلوبهم بالخمر زمنا طويلا حتى صاروا لا يكادون ينفكون عنها في خاص أمرهم وعامه، كيف يستقيم تركهم لها دفعة واحدة؟ لولا حكمة من بيده مقاليد كل شيء وهو أعرف بطبائع خلقه وما

---

(١) يراجع: فؤاد كاظم المقدادي: الإسلام وشبهات المستشرقين، المجتمع العالمي لأهل البيت، ١٤١٦هـ. ص١٤.

(٢) العقل الذري الغربي يجد صعوبة في استيعاب كثير من حقائق علوم القرآن، ومن ذلك ما اعترف به جاك بيرك نفسه قائلا في قضية الناسخ والمنسوخ: ((ولقد نرى أن القرآن في بعض الحالات يتضمن آيات، ستحل محلها آيات أخرى. وإن هذا الأمر ليدهش الإنسان الغربي. ولكن العقيدة تعطي لهذا الأمر كثيرا من التبريرات)) القرآن و علم القراءة، ترجمة منذر عياشي، ط١، ١٩٩٦م، ص٧٠.

(٣) من شطحات المستشرق وات Watt أن تحريم الخمر في الإسلام جاء نتيجة للاعتبارات السياسية؛ لأن الخمر أي عصير العنب الصافي كان يستورد من سوريا والعراق، واقتناؤه يؤدي إلى إفادة العدو. وما تساءل عن سر بقاء تحريمه حتى بعد فتح بلاد الشام والعراق بعد أن صارت من أرض الإسلام، كما لم يستطع أن يفهم وصفه تعالى لها بالرجس وبأنها من عمل الشيطان، ومن كون شربها سببا للعداوة والبغضاء بين المؤمنين، ومن كونها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة إلى الدرجة التي صارت فيه عِدلا للشرك.
Watt. Muhammad at Medina, p299.

به تصلح من التدرج في أخذها إلى طريق الترك بعد أن تستقوي بالإيمان، وهذا لعمري شأن دقيق من شؤون التربية مما بلغه أرباب التربية في كل عصر وفي كل ملة، إذ التدرج صنعة الحكماء. كما غاب عن هذا الدعي أن الآيات التي سبقت آية التحريم النهائي منسوخة كما ذهب إلى ذلك أكثر أهل العلم، قال أبو حيان الأندلسي في آية النحل: ((وهذه الآية مكية نزلت قبل تحريم الخمر، ثم حرمت بالمدينة فهي منسوخة))[1].

ومما يدخل تحت هذه الشبهة ما ذهب إليه مونتغمري وات في كتابه (محمد في المدينة) قائلا: ((إن أقدم الأجزاء في القرآن لا تحتوي على أي هجوم على الوثنية، بل كانت تقول بوجود توحيد غامض (Vague Monotheism) عند أتباع محمد، ثم أخذ الإلحاح يشتد على وجود إله واحد مع اشتداد النقد لعبادة الأصنام))[2].

وله يقال: إذا لم يهاجم القرآن الكريم الوثنية، فماذا تعني الآية: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠٠]، (وهي آيات مكية من سورة

(١) أبو حيان: البحر المحيط، ٥٥٧/٦. وقال الزمخشري: ((فيه وجهان: أحدهما أن تكون منسوخة. وممن قال بنسخها: الشعبي والنخعي. والثاني أن يجمع بين العتاب والمنة)) ٥٩٣/٢. وانظر ما قاله الشافعي في الرسالة: ص١٦٠-١٦١.

(2) Muhammad at Medina, P 309.

الأنبياء: ٩٨-١٠٠) ومثلها من السورة نفسها ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٥-٢٥] [الأنبياء: ٢٥]، ولا تكاد تجد سورة مكية تخلو من معاني التوحيد الخالص لله، بل إن المرحلة المكية كما هو معروف عند أهل الملة المحمدية اختصت بترسيخ عقيدة التوحيد كاختصاص المرحلة المدنية بضبط الأمور التشريعية.

ومما نجيب به هذا الدعي ما ذكره المستشرق جاك بيرك Jacques Berque حين قال: ((إن القرآن قد يستطيع أن يوجز نفسه في كلمة واحدة، هي وحدانية الله. وإن هذه الوحدة اللغوية الصغرى لتعد وحدة عملاقة للوحدانية الإلهية، فهي تعلن على طول (٦٢٠٠) آية وأكثر ما انطوت عليه في الدين الحق ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص: ١-٤]هذا هو التوحيد في أروع صوره. وأما ما تبقى فمشتق، أو هو نتيجة طبيعية))[1].

القرآن والعربية:

من جملة من صادفتهم في مسيرة بحثي في سنوات الدكتوراه باحث هولندي له كتابات غزيرة عن الإسلام والقرآن والعربية، وقد عرفته من خلال مؤلفاته رجلا متقلبا في آرائه، وبخاصة منها اللغوية والشرعية. وإن كان التراجع عن الخطأ فضيلة العالم، التي بها يعرف، فإن كيس فيرشتيخ

(١) القرآن والقراءة: ترجمة منذر عياشي، ص٣٢.

C.H.M.Versteegh لا يكاد يستقر على حال. وجدير بالذكر أن اشتغاله باللغة العربية هو وكثير من أمثاله كان يهدف إلى ضرب عدد من الحقائق الدينية، وذلك بسبب معرفتهم بالصلة الوطيدة بين اللغة العربية والقرآن، فهي اللسان الذي حمل رسالة الله إلى الناس أجمعين، وأنا أجمل بعض آرائه ومواقفه المتعلقة بالدراسات القرآنية وثقافتنا الإسلامية والعربية حتى يتمكن السامعون من معرفته:

فقد كان يرى في دراساته الأولى أن ((المنهج العربي يمكن أن يكون حصيلة تفاعلات علوم متنوعة (العلوم الشرعية) (...) ويمكن أن تكون هذه الأصول (أصول النحو) قد وصلت إلى العرب عن طريق الرواية وبمساعدة التفاسير التوراتية لليهود، وربما كانت عن طريق ترجمة ونقل الأعمال الطبية أو عن طريق الاتصال المباشر في مدينة الإسكندرية))[1] وهو لا يني يعبر عن اعتقاده حين ينظر في كتاب سيبويه مثلا، فلا يستسيغ هذا البناء الضخم، فيقول: ((لا يبدو مقبولا بدءاً أن هذا النسق المتوازن بمصطلحاته المتقدمة هو حصيلة تطور طبيعي خلال أقل من قرن (...) كل شيء يشير إلى أن النحاة الأوائل (...) لهم صلة بالمدارس الحية للنحو الإغريقي التي تشمل كل منطقة الشرق الأدنى)). ويضيف: ((يصعب تصور كون الخمسين أو الستين سنة التالية لمحاولات أبي الأسود الدؤلي قمينة لبلوغ النحو العربي إلى هذا المدى الواسع دون تأثير خارجي))[2].

---

(1) Versteegh.C.H.M Greek Elements in Arabic Linguistic Thinking, p103.

(2) Ibid.

وفيرشتيخ هذا لم يكلف نفسه ذكر نحوي واحد أخذ عنه سيبويه النحو الإغريقي. بل إن قوله يحمل مغالطة واضحة، ولعل الحساب قد خانه، فما بين وفاة سيبويه (ت١٨٠هـ) وعمل أبي الأسود الدؤلي زمن علي رضي الله عنه (٣٥هـ-٤٠هـ) ما يزيد على (١٣٠) سنة وليس ٥٠أو ٦٠ سنة.

وبلهجة الساخر الشاك يقول: ((وعندما بدأ المسلمون في جمع القرآن وتسجيله، أحس الناس بالحاجة إلى نظام كتابة موحد وواضح. وعزى الناس إلى نحويين كثيرين، من بينهم المخترع المزعوم للنحو العربي أبو الأسود الدؤلي))[1].

ومن خلال هذا الكلام يظهر لك كيف أن هذا المستشرق مولع بالقضايا ذات الطابع الخلافي أو التي وردت فيها أقوال متعددة ليسهل عليه ركوب الخلاف وتهويله والتشكيك في الحقائق من قبيل الواضع الأول للنحو العربي التي يعرفها كل من كان له أدنى اطلاع على فقه اللغة العربية، وهي على كل ليست بذات أهمية كما يحاول أن يوهمنا فيرشتيخ، لأن الذي نعتقده أن بداية النحو كانت جماعية، يقول ابن خلدون: ((وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا، ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على الفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة

---

(١) كيس فيرشتيخ: اللغة العربية، تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، ترجمة محمد الشرقاوي، المشروع القومي للترجمة، ع٤٤٣،ط١، ٢٠٠٣م، ص ٧٧.

مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه))[١].

وقد تابع كيس فيرشتيخ المستشرق الألماني كارل فولرز في كتابه Volkessprache und Schriftsprache im alten Arabien[٢] فقال: إنه ((كان هناك نص قديم عامي للقرآن الكريم بلهجة النبي عليه الصلاة والسلام، ولكن هذا النص الدارج تم تحويله إلى لغة الشعر الجاهلي في فترة الفتوحات الإسلامية، يقول فولرز: إن الدافع وراء هذا التحويل (أو قل الترجمة) كان الرغبة في رفع لغة القرآن لمستوى لغة الشعر الجاهلي. ويستمر ليقول: ((إن المسؤولين عن عملية الترجمة تلك كانوا حازمين فيما يخص تحقيق الهمزة والتصريف الإعرابي بالذات، وسمحوا لدون ذلك من السمات أن تظهر في نطق القرآن أو في القراءات البديلة في بعض الأحيان))[٣].

وهنا يجمل بنا القول إن مراد فولرز وفيرشتيخ من وراء هذا الافتراء هو ضرب إعجاز القرآن وبيانه العربي، الذي نص عليه القرآن نفسه حين قال ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، كما يهدف الاثنان أيضا من غير دليل غير التخمين إلى

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، دار القلم، بيروت لبنان، ط٧، ١٩٨٩م، ص٥٤٦. ويؤكد هذا المعنى ما جاء عند السيوطي في كتابه ((سبب وضع علم العربية)) قال أبو عبيدة معمر بن المثنى رحمه الله: ((أول من وضع علم العربية أبو الأسود الدؤلي ثم ميمون الأقرن ثم عنبسة الفيل ثم عبد الله بن أبي إسحاق رحمهم الله تعالى))، تحقيق مروان العطية، دار الهجرة دمشق، ط١، ١٩٨٨م، ص٥٦-٥٧.

(٢) اللهجات ولغة الكتابة في العربية القديمة. ١٩٠٦.

(٣) كيس فيرشتيخ: اللغة العربية، تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، ص ٥٧-٥٨.

التشكيك في حفظ الله تعالى لكتابه بتطرق التبديل والتصرف البشريين إليه وفيه،ويكفي لرد هذه الفرية قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر: ٩-٩] [الحجر: ٩]، والحق الذي ينبغي أن يتبع، وبه في كل أمر أن ينتفع، كما قال شيخنا الطاهر بن عاشور، أنه ليس هناك من غرض ((تناضلت له سهام الأفهام، ولا غاية تسابقت إليها جياد الهمم فرجعت دونها حسرى، واقتنعت بما بلغته من صُبابة نزرا، مثل الخوض في وجوه إعجاز القرآن))(١).

وهكذا ترى كيف يتم القفز من قبل المستشرقين على حقائق العلوم بتخرصات وأباطيل تهدم المنقول والمعقول لتعانق الشكوك وتلتف بالظنون. وكل ذلك لضرب فكرة إعجاز القرآن الأبدي، فالقرآن –الذي تحدى العرب بمحاكاته أو محاكاة آية واحدة منه فعجزوا –عندهم لغته دون لغة الشعر...وأن لغته الأولى عامية Volkessprache. وفي أمثال هؤلاء قال ابن قتيبة في كتابه: ((تأويل مشكل القرآن)): ((وقد اعترض كتابَ الله بالطعن ملحدون بالغوا فيه وهجروا، واتبعوا﴿ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله. ثم قضوا عليه بالتناقض والاستحالة واللحن وفساد النظم والاختلاف. وأدلَوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغُمْر، والحدث الغِرّ، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في

---

(١) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ١/١٠١.

الصدور...فأحببت أن أنضحَ عن كتاب الله، وأرمي من ورائه بالحجج النيرة، والبراهين البينة، وأكشف للناس ما يَلبِسون))[1].

ويشير كيس فيرشتيخ لمزًا إلى قضية تطور الخط القرآني بأسلوب ماكر فيتكلم بما يُفْهِم تدخل النساخ التزويري، يقول: ((وكذلك لا توجد أي رموز لتلك الأصوات في النقوش العربية المبكرة التي تعبر عن نص قرآني، وفي بعض المخطوطات أضيف النقط المعبر عن أصوات اللين القصيرة باليد بعد فترة من كتابة المخطوط القرآني الأولي))[2].

وهو كلام يعبر عن جهل بأمرين اثنين:

أولهما: تطور الكتابة العربية[3].

ثانيهما: اعتماد نقل القرآن على الرواية من الصدور لا المخطوط في السطور بما يسد الطريق على كل مدَّع، حتى إنه مما تعارف عليه أهل القرآن إلى زماننا هذا قولهم: ((لا تأخذ العلم عن صحفي ولا القرآن عن مصحفي)). فالقرآن منذ نزل على خير البرية صلى الله عليه وسلم وطريق تلقيه وأدائه السماع من أفواه الشيوخ المعتبرين والقراءة عليهم قصد التحقيق.

---

(١) تأويل مشكل القرآن، شرحه ونشره أحمد صقر. دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط:٣ ١٤٠١/١٩٨١م، ص ٢٢-٢٣.

(٢) كيس فيرشتيخ: اللغة العربية، تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، ص٧٧.

(٣) يراجع، الفرماوي عبد الحي: رسم المصحف ونقطه، فقد خصص في كتابه القيم مباحث عن أصل الخط العربي، وشيوع الكتابة قبل الإسلام وإبان ظهوره، ودخول الكتابة إلى مكة والمدينة، وطريقة كتابة القرآن الكريم، وكتابة القرآن في العهود الثلاثة، كما بحث قضايا النقط والإعجام بما فيه الكفاية.

وإذا أنت انتقلت لتقرأ لهذا المستشرق موقفه من الروايات والقراءات القرآنية[1] تحس بجهله أو تجاهله لمعطيات هذا العلم ومرتكزاته، إذ ينتهي إلى أن مسألة القراءات كأنها من اختيارات الناس وتشهيهم ومعارضتهم لعلماء هذا الشأن لا من تنزيل الباري عز وجل، ويحاول أن يبررها بمنطق مادي ضيق فيقول: ((من ناحية نطق الهمزة فقد أحس الناس في صدر الإسلام أنه من الأفضل أن تستخدم الهمزة في تلاوة القرآن الكريم، وذلك بالرغم من المعارضة الشديدة التي أبداها بعض القراء الأوائل))[2].

ومعلوم أن الاختيار في عرف المقرئين ما يميل إليه المقرئ من بين مروياته، وينتقيه على أساس مقاييس معينة، وهو اختيار صادر عن أثر ورواية، لا عن اجتهاد ودراية مقطوعَين عن النقل، قال الداني: ((إضافة الحروف والقراءات إلى أئمة القراءة بالأمصار، المراد بها أن ذلك القارئ وذلك الإمام اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة وآثره على غيره وداوم عليه، ولزمه حتى اشتهر وعرف به وقصد فيه وأخذ عنه؛ فلذلك أضيف إليه دون غيره من القراء. وهذه الإضافة إضافة اختيار ودوام ولزوم، لا إضافة

(١) يسر الله تبارك وتعالى زمرة من أهل العلم المسلمين ردوا طعون المستشرقين في القراءات القرآنية نذكر منهم: عبد الفتاح القاضي في كتابه(القراءات في نظر المستشرقين والملحدين)، وعبد الرحمن السيد في بحثه (جولدتسيهر والقراءات)، وعبد الفتاح إسماعيل شلبي في كتابه(رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم، دوافعها ودفعها) وعبد الوهاب حمودة في كتابه(القراءات واللهجات) في فصله العاشر، ومحمد طاهر الكردي في كتابه(تاريخ القرآن) فقد رد على من قال باستنباط القراءات من الرسم.

(٢) كيس فيرشتيخ: اللغة العربية، تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، ص٦٣.

اختراع ورأي واجتهاد))[1]. وما ذكره كيس فيرشتيخ من اعتراض بعض القراء على قضية الهمز يقصد من ورائه اللمز إلى ما جرى في تاريخ القراءات من بعض الهنات التي صدرت من قراء ولغويين حكموا على بعض القراءات من خلال قواعدهم، فأساءوا الصنيع، وفتحوا الباب لطعن المستشرقين المغرضين، من ذلك ما لحن فيه الزمخشري رواية ورش عن نافع: ﴿ءَآنذَرْتَهُمْ﴾ (من الآية ٦ من سورة البقرة) بالبدل، فقد جعله بذلك خارجا عن كلام العرب خروجين: ((أحدهما: الإقدام على جمع الساكنين على غير حدِّه، وحدُّه أن يكون الأول حرف لين والثاني حرفا مدغما نحو قوله: الضالِّين وخُوَيْصَّة. والثاني: نسب إلى الخطأ طريق التخفيف؛ لأن طريق تخفيف الهمزة المتحركة المفتوح ما قبلها أن تخرج بين بين، فأما القلب ألفا فهو تخفيف الهمزة الساكنة المفتوح ما قبلها كهمزة رأس))[2].

وقد تعقبه أبو حيان رحمه الله قائلا: ((وقراءة ورش صحيحة النقل لا تدفع باختيار ذاهب، ولكن عادة الرجل إساءة الأدب على أهل الأداء ونقلة القرآن))[3]. وقد خطأ بصريون القراءة المنسوبة لنافع: ((معائش))، ورد

---

(١) الداني أبو عمرو: الأحرف السبعة في القرآن، تحقيق عبد المهيمن طحان. مكتبة المنارة مكة المكرمة. جامعة أم القرى.ط:١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ٦١. كما يراجع للدكتور محمد بلوالي: الاختيار في القراءات والرسم والضبط، مطبعة فضالة المحمدية المغرب. (١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ص: ١١-١٣.

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. ترتيب وضبط مصطفى حسين أحمد. دار الكتاب العربي.ط: ٣ (١٤٠٧/١٩٨٧). ٤٨/١.

(٣) البحر المحيط، دار الفكر ١٤١٢هـ/١٩٩٢ م.،٧٩/١

أبو حيان عليهم تخطئتهم قائلا: ((ولسنا متعبدين بأقوال نحاة البصرة))[1]. والصواب الذي يجب اعتقاده ما ذهب إليه الأندلسي في دفاعه عن القراءات وتصويبها ردّاً على تحكم المتحكمين وجراءة بعض النحويين ومن تعلق بذيولهم من المستشرقين.

والمستشرق كيس فيرشتيخ حين ينظر إلى تراث العرب والمسلمين لا يرى فيه وفيهم إلا استنساخا لحضارة أجداده، يقول: ((ومن ناحية أخرى كان المسلمون حملة الحضارة اليونانية وسدنة تراث الإغريق...))[2] فيختزل مستوى الحضارة الهائل الذي بلغه المسلمون في نقل تراث أجداده، غير أنه لحسن الحظ اعترف بأنهم على الأقل جلسوا في مرحلة ما في التاريخ ليتعلموا على أيدي أجدادنا، يقول عن أسلافه: ((...والذين جلسوا بخشوع تحت أقدام الأطباء العرب وسموا أنفسهم Arabizantes... واهتم البعض الآخر بترجمة ما كانوا يعتقدون أنه كان رسالة دينية خاطئة مشوشة. وكانت بغيتهم في ذلك تفنيد حجج المحمديين بل وتحويلهم إلى الدين المسيحي، ولذلك ظهرت أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم عام ١١٤٣م أشرف عليها قس يسمى بيتر الموقر الذي توفي عام ١١٥٧م، وكان هدف الترجمة فضح أخطاء المسلمين الذين كانوا غالبا ما يسمون بالAgarenes))[3].

وقد كتب أيضا كيس فيرشتيخ كتابا آخر في هذا الميدان نشر عام

---

(١) البحر المحيط، ٥/١٥.

(٢) كيس فيرشتيخ: اللغة العربية، تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، ص١٠.

(٣) كيس فيرشتيخ: اللغة العربية، تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، ص١٠.

١٩٩٣م، تحت عنوان:

Arabic Grammar and Qur'anic Exegesis in Early Islam
.(**Brill, Leiden**)

أي: قواعد اللغة العربية وتفسير القرآن في فجر الإسلام. وبنفس الروح الشاكّة المتشككة يحفر في التراث بحثا عن شاذ الآراء وأوهنها وضعيف الروايات وأنكرها؛ ليبني عليه فهما سقيما أو ((نظرية)) متورمة.

ومن منطلق مناقشة موثوقية النصوص الأولى يذهب ليتهم بالتزوير حقبة تاريخية هامة من حضارة المسلمين[1] عائدا مرة أخرى لمسألة السند التي ما شبع المستشرقون . وعلى رأسهم جولدتسيهر وجوزيف شاخت وموتزكي . من ركوبها دون جدوى، بسبب أن علماء الحديث ما تركوا شبرا من أرض حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ونظروا فيه وحَقَّقوه ودققوه وسَيَّجُوه حتى لا يأتي أمثال هؤلاء المستشرقين في آخر الزمن فيفسدوا على الناس شرهم.

من أهم مزالق المستشرقين في نظرهم في القرآن الكريم دخولهم على بابه مع ضعف إحساسهم بأسرار اللغة العربية، فهم أعاجم لم ينشؤوا في البيئات الشرقية، ولم يتعمقوا في الذوق الخاص بلغاتها، وهم أصحاب مناهج علمية علمانية وضعية ثقفوها في بيئاتهم الأوربية، فإن كانت لدى بعضهم إمكانات وجهود مكثفة في التحقيق والفهرسة والنشر، فليس لديهم ذلك

---

(1) Arabic Grammar and Qur'anic Exegesis in Early Islam (Brill, Leiden).1993.p43.

التحليل الأدبي المعمق في الآداب التي درسوها. بل كثيرا ما كانوا يقعون في أخطاء فادحة في فهم الأساليب العربية[1]، وستكون النتيجة أخطر حين يتعرضون للبيان القرآني فيأتون بغريب الآراء وشاذ الفهم الذي يعكس تعصبهم من جانب وجهلهم بأسرار القرآن من جانب آخر. يقول الإمام الشافعي في رسالته: ((وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان عربي دون غيره؛ لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفرقها. ومن عَلِمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على مَنْ جهل لسانها))[2].

لا بد أن نستثني من أحكامنا فئة منصفة، وهي في عمومها تقاد إلى الإسلام فتدين به، أو تكون من فضلاء الباحثين الذين لم يلوثوا حياتهم العلمية بالعمالة لمؤسسات الهيمنة الغربية ومراكز بحثها[3].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) يراجع: عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، دار الفكر العربي القاهرة، ط٨، ١٩٧٠م، ١/١٨٤.

(٢) الرسالة: تحقيق أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية بيروت لبنان، ص٥٠.

(٣) موريس بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة حسن خالد، المكتب الإسلامي، بيروت،ط٣، ١٩٩٠م.

المصادر والمراجع:

* آلبرت ديتريش، **الدراسات العربية في ألمانيا، تطورها التاريخي ووضعها الحالي**، جوتنجن، ١٩٦٢م.

* أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط، دار الفكر، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

*إدوارد سعيد: **الاستشراق،المعرفة. السلطة. الإنشاء**. ترجمة كمال أبو ديب، الطبعة الثانية،١٩٨٤م. مؤسسة الأبحاث العربية.

* أحمد حسن عبد السلام: **تاريخ الاستشراق الألماني**، ضمن الفكر العربي، ع٣١، س٥، ١٩٨٣م.

* الباقلاني أبو بكر بن الطيب: **الانتصار للقرآن**، تحقيق محمد عصام القضاة، دار ابن حزم،ط١، ٢٠٠١م.

* بروكلمان، كارل: **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة عبد الحليم النجار، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار المعارف القاهرة، ط٣.

* بلاشير، ريجيس: **القرآن نزوله وتدوينه وترجمته وتأثيره**، ترجمة: رضا سعادة، بيروت: دار الكتاب، ط ١، ١٩٧٤م.

* بول (Fr. Bull)، **دائرة المعارف الإسلامية الألمانية**، ترجمة جماعة، القاهرة، ١٩٣٣م.

* جاك بيرك، **القرآن وعلم القراءة**، ترجمة منذر عياشي، دار التنوير للنشر بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

* الداني، أبو عمرو: **الأحرف السبعة في القرآن** قطعة من كتابه

جامع البيان، تحقيق عبد المهيمن طحان. مكتبة المنارة مكة المكرمة. جامعة أم القرى.ط:١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

* الزمخشري، جار الله أبو القاسم: **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. ترتيب وضبط مصطفى حسين أحمد. دار الكتاب العربي.ط:٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

* سعيد علوش: **مكونات الأدب المقارن في العالم العربي**، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني- دار الكتاب العالمي، الطبعة١، ١٩٨٧م.

* السيوطي:**سبب وضع علم العربية**، تحقيق مروان العطية، دار الهجرة دمشق، ط١، ١٩٨٨م.

* شلتاغ عبود شراد: **الاستشراق الأدبي**، ضمن رسالة الجهاد، ع٨٩، س ١٩٩٠م.

* عبد العظيم الديب: **المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي**، سلسلة كتاب الأمة ط١، قطر، مطابع مؤسسة الخليج، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ربيع الثاني١٤١١هـ.

* الصغير، محمد حسين علي: **المستشرقون والدراسات القرآنية**، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٣م.

* الطاهر بن عاشور: **التحرير والتنوير**: الدار التونسية للنشر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.

* طه عبد الرحمن: **فقه الفلسفة، الجزء الأول:الفلسفة والترجمة،** المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٠م.

* عبد الرحمن بن خلدون: **المقدمة،** دار القلم، بيروت لبنان، ط٧، ١٩٨٩م.

*عزيز سوريال: **العلاقات بين الشرق والغرب،** طبعة دار الثقافة، ١٩٧٢م.

* عماد الدين خليل:**الاستشراق والسيرة،** ضمن كتاب: **مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية،** الرياض، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨٥م.

* عمر الدسوقي، **في الأدب الحديث،** دار الفكر العربي القاهرة، ط٨، ١٩٧٠م.

* عمر لطفي العالم: **نحن والاستشراق،** ضمن رسالة الجهاد، ع٨٨، س١٩٩٠م.

* غلاب محمد: **نظرات استشراقية في الإسلام،** مطبعة شالة، ١٩٨٠م.

* فؤاد كاظم المقدادي: **الإسلام وشبهات المستشرقين.**

* الفرماوي، عبد الحي حسين: **رسم المصحف ونقطه،** مؤسسة الريان، دار نور المكتبات،ط١، ٢٠٠٤م.

* ابن قتيبة: **تأويل مشكل القرآن،** شرحه ونشره أحمد صقر.دار

الكتب العلمية بيروت لبنان ط:٣، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

* كيس فيرشتيخ: **اللغة العربية، تاريخها ومستوياتها وتأثيرها**، ترجمة محمد الشرقاوي، المشروع القومي للترجمة، ع٤٤٣،ط١، ٢٠٠٣م.

* لطفي العالم: **المستشرقون والقرآن. دراسة نقدية لمناهج المستشرقين**- فاليتا: مركز دراسات العالم الإسلامي، ١٩٩١م.

* **القرآن الكريم دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار ليدن**، رقم ٢، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٧م.

* محمد بلوالي:**الاختيار في القراءات والرسم والضبط**، مطبعة فضالة المحمدية المغرب. ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

* محمد عبد الله دراز: **النبأ العظيم**، **نظرات جديدة في القرآن**، دار القلم، ١٩٧٤م.

* مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار في البلاد العربية:عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار**، بيروت، ١٩٧٥م.

* موريس بوكاي: **التوراة والإنجيل والقرآن والعلم**، ترجمة حسن خالد، المكتب الإسلامي، بيروت،ط٣، ١٩٩٠م.

* نجيب العقيقي: **المستشرقون**، ط٣، دار المعارف، ١٩٦٥م.

*Dante Alighier: **La Comédie Divine**,éd Librairies

Garnier Frères, Paris 1930

*Gibb.**Mohammedanism** ; oxford, 1950

*K.Verrsteegh. **Arabic Grammar and Qur'anic Exegesis in Early Islam** (Brill, Leiden),1993.

*Matt.W: **Islam and Integration of Society**, London. 1961

*M.Rodinson: **La Fascination de l islam**, éd Maspero, Paris 1980

* Rosenthal.: **The Influence of Biblical Tradition on Muslim Historiography**. In B. Lewis P.M. Holt éd Historians of the Middle East, Oxford 1962.

* Watt,W.M. **Muhammad at Mecca**, Fifth edition, Oxford;1972.

* Watt,W.M. **Muhammad at Medina**, Oxford press, London, 1966

* Watt, W.M. **Muhammad Prophet and Statesman**, Oxford University Press, 1964

فهرس الموضوعات